الدور السياسى لشجرة الدر فى مصر من الحملة الصليبية السابعة حتى مقتل عز الدين أيبك (٦٤٧هـ/١٢٤٩م-٦٥٥هـ/١٢٥٧م).

دكتورة/ وفيقة أحمد يوسف السعيد

ملخص باللغة العربية

شجرة الدر جارية من أصل أرمني أو تركي، اشتراها الصالح أيوب ثم أعتقها وتزوجها، وعرفت بشجرة الدر وشجر الدر ، وذلك بسبب كثرة مجوهراتها ، وقيل لأنها امرأة ثقة كالشجرة التى تظلل عرش الملك الصالح .

فكرت شجرة الدر في الصعود إلى كرسي الحكم في مصر! وقالت لنفسها: لقد حكمت البلاد سرًا أيام معركة المنصورة، فلماذا لا أحكمها جهرًا الآن؟في ذات الوقت وجد المماليك البحرية في شجرة الدرّ الفترة الانتقالية التي يريدون إنها زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي يكنّون له كامل الوفاء والاحترام ، وهي في الوقت نفسه تعتبر من المماليك لأن أصلها جارية وأعتقت، كما أنها في النهاية امرأة، ويستطيع المماليك من خلالها أن يحكموا مصر.

تولت شجرة الدر السلطنة وكما كان لها دور سياسى قبل سلطنتها فقد كان لها نفس الدور بعد ولايتها سلطنة دولة المماليك،ومن ثم يأتى هذا البحث ليتناول الحديث عن دور شجرة الدر فى الحملة الصليبية السابعة وبعدها ، ودورها فى التخلص من تورانشاه، ودورها كسلطانة لمدة ثمانين يوماً ، ودورها فى عصر عز الدين أيبك .

Abstract

shajarat aldurr is a slave-woman of Armenian or Turkish origin. Al-Saleh Ayoub bought her, then freed her and married her, And I knew shajarat aldurr and shajar aldurr, This is because of the abundance of her jewelry, And it was said that she is a confident woman, like a tree that shades the throne of the good king.

Shajarat Al-Durr thought about ascending to the seat of government in Egypt! She said to herself: She ruled the country secretly during the battle of Mansoura So why don't I judge her out loud now.

At the same time he found the marine Mamelukes in Shajarat al-Durr The transition period that they want, She is the wife of the good king Najm al-Din Ayyub To whom they hold the utmost loyalty and respect, At the same time she is considered one of the Mamelukes, Because her origin is current and released, Finally, she is also a woman, And through which the Mamluks can rule Egypt.

The Durr Tree took over the Sultanate, Just as it had a political role before its sultan, so it had the same role after its mandate, the Sultanate of the Mamluk State, Then this paper comes to address the discussion of the role of the tree of Durr in and after the Seventh Crusade, And its role in getting rid of Turanshah, And her role as Sultana for eighty days, And its role in the era of Izz al-Din Aibek.

الدور السياسى لشجرة الدر فى مصر من الحملة الصليبية السابعة حتى مقتل عز الدين أيبك (٦٤٧هـ/١٢٤٩م-٦٥٥هـ/١٢٥٧م).

دكتورة/ وفيقة أحمد يوسف السعيد

مقدمة

شجرة الدرّ امرأة ذات طابع خاص جدًّا ([1]).. لا تتكرر كثيرًا في التاريخ.. فهي امرأة قوية جدًّا.. شجاعة.. جريئة.. لها عقل مدبر، وتتمتع بحكمة شديدة.. كما أن لها القدرة على القيادة والإدارة.. وكانت شجرة الدرّ ترى في نفسها كل هذه القدرات.. وكانت شديدة الإعجاب بإمكانيتها وبنفسها (وكان هذا من أكبر مشاكلها).. مما دفعها إلى تفكير جديد تمامًا على الفكر الإسلامي، وخاصة في هذه الفترة من تاريخ الأمة.

فكرت شجرة الدر في الصعود إلى كرسي الحكم في مصر! وهذا أمر هائل فعلًا، وهذه سباحة عنيفة جدًّا ضد التيار.. لكنها وجدت في نفسها الملكات التي تسمح بتطبيق هذه الفكرة الجريئة! فقالت لنفسها: لقد حكمت البلاد سرًا أيام معركة المنصورة، فلماذا لا أحكمها جهرًا الآن؟

في ذات الوقت وجد المماليك البحرية في شجرة الدرّ الفترة الانتقالية التي يريدون.. إنها زوجة «الأستاذ».. زوجة الملك الصالح أيوب الذي يكنّون له (ويكنُّ له الشعب كله) كامل الوفاء والاحترام والحب، وهي في الوقت نفسه تعتبر من المماليك لأن

[1] جارية من أصل أرمني أو تركي، اشتراها الصالح أيوب ثم أعتقها وتزوجها، وكانت فى صحبته وهو ببلاد المشرق فى حياة والده الملك الكامل ، وسارت معه لما حبسه الملك الناصر داوود صاحب الكرك بالكرك ، ومعها ولدها خليل أيضاً ، ثم قدمت مع الملك الصالح لما تسلطن على مصر. أنظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٨م ، ٣٧٣/٦. وعرفت بشجرة الدر وشجر الدر ، وذلك بسبب كثرة مجوهراتها ، وقيل لأنها امرأة ثقة كالشجرة التى تظلل عرش الملك الصالح . أنظر : عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨م ، ص٦٩.

أصلها جارية وأعتقت، كما أنها في النهاية امرأة، ويستطيع المماليك من خلالها أن يحكموا مصر، وأن يوفروا الأمان لأرواحهم.

وقد قسمت البحث إلى عدة عناصر تناولت الحديث عن دور شجرة الدر فى الحملة الصليبية السابعة وبعدها ، ودورها فى التخلص من تورانشاه ، ودورها كسلطانة لمدة ثمانين يوماً ، ودورها فى عصر عز الدين أيبك .

وفيما يخص المنهج: فقد اعتمدت الباحثة على المنهج الوصفى التحليلى ، والمنهج الاستقرائى ، كما تم الاستعانة بالمنهج النقدى فى مناقشة الروايات المختلفة والآراء ، لترجيح رواية على أخرى ، وتغليب رأى على آخر اعتمادا على الأصول والمصادر التى توضح ذلك.

والله ولى التوفيق

المبحث الأول : دور شجرة الدر فى الحملة الصليبية السابعة وما بعدها:

أحدث استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ٦٤٢ه /١٢٤٤م رد فعل عنيف فى الغرب الأوربى ، الأمر الذى دفع البابوية تدعو لحملة صليبية جديدة هى الحملة السابعة من جملة الحملات الصليبية ، ولم يستجب لهذه الدعوة سوى لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس([٢]).

توجه الملك لويس التاسع بجيشه إلى دمياط في يوم ٢٠ من صفر سنة ٦٤٧ه/١٢٤٩م، وللأسف الشديد ظنت الحامية المدافعة عن المدينة أن سلطانهم المريض الملك الصالح أيوب قد مات، فانسحبوا انسحابًا غير مبرر، ووقعت دمياط في أيدي الصليبيين بسهولة، فدخلوها بغير كلفة ، وتملكوها بغير قتال ([٣])، وهي المدينة التي دوخت قبل ذلك الصليبيين فى الحملة الخامسة.

علم بذلك الملك الصالح فاشتد حزنه، وعاقب المسئولين عن جريمة سقوط دمياط ([٤])، وتوقَّع أن النصارى الصليبيين سيتجهون إلى القاهرة عبر النيل لغزو العاصمة المصرية نفسها، وبذلك يُسقطون الدولة بكاملها.. لذلك فقد قرر بحكمته أن يرتب اللقاء في الطريق بين القاهرة ودمياط.. واختار لذلك مدينة المنصورة لأنها تقع على النيل، وحتمًا سيستغل الصليبيون النيل للإبحار فيه بسفنهم الكثيرة ([٥]).

وبالفعل أمر الملك الصالح بأن يحمله الناس إلى مدينة المنصورة الواقعة على فرع النيل الذي يأتي من دمياط، وذلك لانتظار جيش الصليبيين بها، والاستعداد لمعركة فاصلة هناك.. وبالفعل حُمل الملك الصالح -على الرغم من مرضه الشديد- إلى

---

[٢] سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص١٢٧.

[٣] المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ٣٣٦/١.

[٤] أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق محمد زينهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٧٩/٣.

[٥] نفس المصدر والمكان والصفحة .

المنصورة، وبدأ فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس يضعان الخطة المناسبة للقاء النصارى في المنصورة.

خرج الصليبيون من دمياط في ١٢ من شعبان ٦٤٧ هجرية متجهين جنوبًا عبر النيل صوب القاهرة، وكان من المؤكد أنهم سيمرون على المنصورة كما توقع الصالح أيوب.. ولكن سبحان الله في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هجرية توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب(٦)، وهو في المنصورة يعد الخطة مع جيوشه لتحصين المدينة (٧).. يقول «ابن تغري بردي» صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» المتوفى سنة ٨٧٤ هجرية: «ولو لم يكن من محاسن السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلا تجلده عند مقابلة العدو بالمنصورة، وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد والذبّ عن المسلمين لكفاه ذلك»، ثم يقول: «ما كان أصبره وأغزر مروءته!» (٨) ، ووصفه آخر بأنه : " كان مهيباً عالى الهمة شديد الوقار" (٩).

كتمت شجرة الدرّ خبر وفاة الملك الصالح وأعلنت لأمراء الجيش أن السلطان مريض ، وأن الأطباء منعوا زيارته (١٠)، وأرسلت بسرعة إلى تورانشاه ابن الصالح

---

٦ سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، ص١٣١.

٧ المقريزى : السلوك ، ٣٤٩/١ ؛ وانظر : ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٣٧٧/١ وما بعدها.

٨ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ٣٢٧/٦.

٩ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٩٥١م ، قسم ٢ ج٢ ص٧٧٥.

١٠ الصفدى : الوافى بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ،٢٠١٠م ، قسم ١٦ ج١ ص١٢٠ ؛ وانظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، ٢٧٩/١. وهذا التصرف الحصيف من قبل شجرة الدر لم يأت من فراغ إذ إن زوجها الملك الصالح لما كان يذهب فى حملاته إلى بلاد الشام كان يتركها نائبة عنه فى مصر تدبر الأمور. أنظر : عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك ، ص٦٩.

أيوب، والذي كان يحكم مدينة تعرف «بحصن كيفا» ،([١١])، وأبلغته بخبر وفاة أبيه، ودعته للعودة سريعاً لاستلام مقاليد الحكم في مصر والشام، ثم اتفقت مع كبير وزراء الملك الصالح وكان اسمه «فخر الدين يوسف» على إدارة الأمور إلى أن يأتي توران شاه ([١٢])، ثم كلفت فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس بالاستمرار في الإعداد للمعركة الفاصلة في المنصورة، وهكذا سارت الأمور بصورة طيبة بعد وفاة الملك الصالح، ولم يحدث الاضطراب المتوقع نتيجة هذه الوفاة المفاجئة، وفي هذه الظروف الصعبة ([١٣]).

ومع كل احتياطات شجرة الدرّ فإن خبر وفاة الملك الصالح أيوب تسرب إلى الشعب، بل ووصل إلى الصليبيين، وهذا أدى إلى ارتفاع حماسة الصليبيين، وانخفاض معنويات الجيش المصري، وإن ظل ثابتًا في منطقة المنصورة ([١٤]).

وضع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس خطة بارعة لمقابلة الجيش الفرنسي في المنصورة، وعرضاها على شجرة الدر، وكانت شجرة الدرّ تمثل الحاكم الفعلي لحين قدوم توران شاه ابن الصالح أيوب.. وأقرت شجرة الدرّ الخطة، وأخذ الجيش المصري مواقعه، واستعد للقاء([١٥]).

ودارت موقعة المنصورة العظيمة في الرابع من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هجرية ، وانتصر فيها المسلمون انتصارًا باهرًا، ثم حدث هجوم آخر على جيش الملك لويس

---

[١١] الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق بشار عواد دار الغرب الإسلامى ، ، ط١ ، ٢٠٠٣م، ٤٤/٤٧.

[١٢] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٣٦٤/٦.

[١٣] ستانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد سالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٥م ، ص٤٤٩.

[١٤] سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، ص١٣١،١٣٢ ؛ وانظر : قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، دار عين ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص١٧.

[١٥] عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك ، ص٧١.

التاسع المُعَسكِر خارج المنصورة، وذلك في اليوم السابع من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هجرية، ولكن الملك لويس التاسع تمكن من صد ذلك الهجوم بعد كفاح مرير(١٦).

وصل توران شاه إلى المنصورة بعد هذا الهجوم الأخير بعشرة أيام في السابع عشر من ذي القعدة سنة ٦٤٧ ه، وتسلم السلطان الشاب مقاليد الحكم، وأُعلن رسميًا وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وولاية توران شاه حكم مصر والشام.. ثم بدأ توران شاه في التخطيط لهجوم جديد على الصليبيين.. وكانت حالة الجيش الصليبي قد ساءت، وبدأ بالانسحاب ناحية دمياط، بينما ارتفعت معنويات الجيش المصري جدًّا للانتصارات السابقة، وخاصة انتصار المنصورة، ولوصول توران شاه في الوقت المناسب حيث تيمن الناس بطلعته على حد تعبير المصادر المعاصرة للأحداث(١٧).

استطاع الجيش المصري أن يلتقي مرة أخرى مع الصليبيين، عند مدينة «فارسكور» في أوائل المحرم سنة ٦٤٨ ه، بعد أقل من شهرين من موقعة المنصورة الكبيرة! ودارت هناك معركة هائلة تحطم فيها الجيش الصليبي تمامًا(١٨) بل وأسر الملك لويس التاسع نفسه، ووقع جيشه بكامله ما بين قتيل وأسير، وسيق الملك لويس مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة، حيث حبس في دار «فخر الدين إبراهيم ابن لقمان»(١٩).

وضعت شروط قاسية على الملك لويس التاسع ليفتدي نفسه من الأسر، وكان من ضمنها أن يفتدي نفسه بثمانمائة ألف دينار من الذهب يدفع نصفها حالًا ونصفها مستقبلًا، على أن يحتفظ توران شاه بالأسرى الصليبيين إلى أن يتم دفع بقية الفدية،

---

١٦ ستانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، ص٤٤٨،٤٤٧.

١٧ المقريزى : السلوك ،٣٥١/١ وما بعدها ؛ وانظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٣٦٤/٦.

١٨ ابن كثير: البداية والنهاية، ٢٠٩/١٣ ؛ وانظر : ابن أيبك : كنز الدرر ، تحقيق هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١م ،٢٢/٨.

١٩ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد ضياء الدين الريس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٢م، ٣٥٦/٢٩ ؛ وانظر : عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص٧٢.

بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى المسلمين، وتسليم دمياط للمسلمين، وهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات([٢٠]) ، وتم بالفعل جمع نصف الفدية بصعوبة، وأطلق سراح الملك لويس التاسع إلى عكا مع بقية جيشه([٢١]) ، ولا يمكننا أن نغفل دور شجرة الدر فى تزيين قبول الفدية من الصليبيين سواء لتورانشاه أو لقادة المماليك وهو ما يؤكده ستانلى لين بول بقوله : " ويمكن القول إن القديس لويس يدين بحياته إلى كرم أخلاق الملكة وشهامتها لقبول الفدية منه" ([٢٢]).

المبحث الثانى : دور شجرة الدر فى التخلص من تورانشاه :

الجدير بالذكر أنه رغم هذا الانتصار المبهر فإن توران شاه لم يكن الرجل الذي يناسب تلك الأحداث الساخنة التي تمر بها الدولة الأيوبية.

لقد كان توران شاه شخصية عابثة! فلقد اتصف هذا السلطان الشاب بسوء الخلق، والجهل بشئون السياسة والحكم، وأعماه الغرور الذي ركبه بعد النصر على لويس التاسع ملك فرنسا عن رؤية أفضال ومزايا من حوله، فقد بدأ من ناحية يتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر، واتهمها بإخفاء أموال أبيه وجواهره ، وطالبها بهذا المال ([٢٣])، بل وهددها بشدة حتى دخلها منه خوف شديد، ولم يحفظ لها جميل حفظ الملك له بعد موت أبيه، وحفاظها على سير الأمور لحين قدومه ([٢٤])، فما كان من شجرة الدر إلا أن كاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حق تورانشاه من تمهيد للدولة وضبط للأمور حتى

---

[٢٠] المقريزى : السلوك ، ٣٦٣/١؛ وانظر : محمد سهيل طقوش: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ، دار النفائس ، ١٤٢٩هـ، ص٣٨٩.

[٢١] ستانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، ص٤٥١ ؛ وانظر : محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ،ص٣١٥.

[٢٢] ستانلى لين بول : سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧م ، ص١٧٤.

[٢٣] ابن أيبك : كنز الدرر ، ٣٨٢/٨.

[٢٤] المقريزى : السلوك ، ٣٥٨/١.

حضر وتسلم أملاكه ، فى حين أنه ما جازاها إلا بالتهديد والتخويف ، ومن ثم كانت دعوتها للمماليك بالتخلص من تورانشاه ([٢٥]) .

لقيت مكاتبة شجرة الدر للمماليك بشأن قتل تورانشاه قبولاً لا سيما بعد تنكر الأخير لكبار أمراء المماليك، وعلى رأسهم فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس، ولم يحفظ للمماليك جميل الانتصار الرائع الذي حققوه في موقعة المنصورة، بل راح يقلل من شأنهم، ويقلص من مسئولياتهم ([٢٦]). ومن ثم حرك كتاب شجرة الدر السواكن بفارس الدين أقطاى ورفاقه المماليك فاتفقوا على قتل تورانشاه ([٢٧])، وتم لهم ذلك فمات جريحاً غريقاً حريقاً ([٢٨]).

المبحث الثالث : شجرة الدر سلطانة على مصر

توافقت رغبات المماليك مع رغبة شجرة الدر فى حكم مصر وقرروا جميعًا إعلان شجرة الدرّ حاكمة لمصر بعد مقتل توران شاه بأيام، وذلك في أوائل صفر سنة ٦٤٨ ه([٢٩]) ، وذلك لأن الأمور لم تكن مهيأة تماماً لأن يتولى أحد من المماليك السلطنة ، هذا فضلاً عن أن شجرة الدر من ناحية الأصل أقرب إلى المماليك ، ومن ثم اعتبرها المقريزى أول كمن ملك مصر من ملوك الترك المماليك([٣٠]).

---

[٢٥] نفس المصدر والمكان والصفحة ؛ وانظر : وليم موير ك تاريخ دولة المماليك فى مصر ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ،ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص٤٣

[٢٦] العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ٢٤/١ ؛ وانظر : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص١٨١.

[٢٧] أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ١٨١/٣.

[٢٨] أبو شامة : الذيل على الروضتين ، نشر محمد عزت العطار ، ط٢ ، ١٩٧٤م، ص١٨٥.

[٢٩] السيوطي: تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، القاهرة ، ص٤٠١ ؛ وانظر : ستانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، ص٤٨١.

[٣٠] المقريزى : السلوك ، ٣٦١/١.

وتجدر الإشارة إلى أن أخلاق شجرة الدر وصفاتها كانت بلا شك من الأسباب المهمة فى اتجاه المماليك لتوليتها منصب السلطنة ، ومن ثم فلا غرو أن يصفها القرمانى بقوله: "كانت أحسن تدبيراً من زوجها الصالح نجم الدين أيوب..." ([٣١]) ، وقال الصفدى: " كانت بديعة الجمال ذات رأى وتدبير ودهاء وعقل .." ([٣٢])، وقال ابن تغرى بردى : " ولم تدع أحداً يطمع فى الملك لعظمتها فى النفوس ... واتفقوا على ولايتها لحسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها" ([٣٣])، وقال أيضاً : " كانت خيرة دينة رئيسة عظيمة فى النفوس" ([٣٤]).

ورغم كل ذلك فقد قامت الدنيا ولم تقعد! لأن توسيد أمر السلطنة لامرأة لم يقع قبل شجرة الدر ولا بعدها على حد قول ابن تغرى بردى ([٣٥])، ومن ثم تفجرت ثورات الغضب في كل مكان.. وعمّ الرفض لهذه الفكرة في أطراف العالم الإسلامي.

حاولت شجرة الدرّ أن تُجمل الصورة قدر استطاعتها، وأن تخرج نفسها من الحرج الذى وقعت فيه بسبب المعارضة القوية لسلطنتها . فنسبت نفسها إلى زوجها المحبوب عند الشعب الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقالت عن نفسها إنها ملكة المسلمين الصالحية.. ثم وجدت أن ذلك غير كافٍ فنسبت نفسها إلى ابنها الصغير ابن الصالح أيوب، والمعروف باسم «خليل»، فلقبت نفسها «ملكة المسلمين الصالحية والدة الملك المنصور خليل » ([٣٦])، ثم وجدت ذلك -أيضًا- غير كاف فأضافت نفسها إلى الخليفة العباسي الذي كان يحكم من بغداد وهو «المستعصم بالله»، فقالت: «ملكة المسلمين المستعصمية (نسبة

---

[٣١] القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، تحقيق فهمي سعد ، أحمد حطيط ، عالم الكتب ، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م،ص١٩٧.

[٣٢] الصفدى : الوافى بالوفيات ، قسم ١٦ ج١ ص١٢٠.

[٣٣] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٦/٢٧٣.

[٣٤] نفسه ، ٦/٣٧٩.

[٣٥] نفس المصدر والمكان والصفحة.

[٣٦] ابن ايبك : كنز الدرر ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ، ٧/٢٧٤ ؛ وانظر : ستانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، ص٤٨١.

إلى المستعصم) الصالحية (نسبة إلى الصالح أيوب) والدة الملك المنصور خليل»(٣٧) ، وأوعزت إلى الخطباء فى المساجد أن يذكرونها فى خطبتهم بالقول : " واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح" ، بل وتعدت ذلك بأن نقشت اسمها على السكة فى صيغة : " المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل" (٣٨).

وأمعنت فى الظهور بمظهر الحاكم الحقيقى فاتخذت لها وزيراً هو بهاء الدين على بن محمد بن سليم المعروف بابن حنا ، وكانت وزارته لها أول درجة ترقاها من المناصب الجليلة(٣٩).

ومع كل هذه المحاولات للتزلف إلى العامة وإلى العلماء ليقبلوا الفكرة فإن الغضب لم يتوقف، وظهر على كافة المستويات.. خاصةً أن البلاد في أزمة خطِرة، والوضع حرج للغاية؛ فالحملات الصليبية الشرسة لا تتوقف، والإمارات الصليبية منتشرة في فلسطين، وهي قريبة جدًّا من مصر، وأمراء الشام الأيوبيون يطمعون في مصر، والصراع كان محتدمًا بينهم وبين السلطان الراحل نجم الدين أيوب، كما أن التتار يجتاحون الأُمَّة الإسلامية من شرقها إلى غربها، وأنهار دماء المسلمين لا تتوقف، والتتار يطرقون باب الخلافة العباسية بعنف.. ومصر في هذا الوقت الحرج على فوهة بركان خطير.

قامت الثورات العارمة على المستوى الشعبي في القاهرة ، وشرع الثوار في الخروج إلى خارج حدود المدينة، مما اضطر السلطات الحكومية إلى غلق أبواب القاهرة لمنع انتشار الثورة إلى المناطق الريفية (٤٠).

---

٣٧ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ٣٧٤/٦

٣٨ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ٢٩/١ ؛ وانظر : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص١٨٣.

٣٩ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٣٧٨/٦.

وندد العلماء والخطباء بذلك على منابرهم، وفي دروسهم، وفي المحافل العامة والخاصة، وكان من أشد العلماء غضبًا وإنكارًا الشيخ الجليل «العز بن عبد السلام» : أبرز العلماء في ذلك الوقت والذى صنف رسالة شديدة تقضى بحرمة ولاية المرأة السلطنة ([٤١]).

كما أظهر الأمراء الأيوبيون في الشام حنقهم الشديد، واعتراضهم المغلظ على صعود النساء إلى كرسي الحكم في مصر ، حيث أعلن الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة فى دمشق امتناعه عن حلف اليمين لشجرة الدر ([٤٢]) ، كما امتنعت فئة المماليك القيمرية بدمشق عن مبايعة شجرة الدر بالسلطنة ، الأمر الذى أحدث خللاً بالشام ([٤٣]).

وجاء رد الخليفة العباسي «المستعصم بالله» قاسيًا جدًّا، وشديدًا جدًّا، بل وساخرًا جدًّا من الشعب المصري كله، فقد قال في رسالته: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم أعلمونا، حتى نسير إليكم رجلًا!»([٤٤]).

لم تتوقف الاعتراضات على السلطانة الجديدة ، ولم تنعم بيوم واحد فيه راحة، وخافت السلطانة الطموحة على نفسها، خاصة في هذه الأيام التي يكون فيها التغيير عادة بالسيف والذبح لا بالخلع والإبعاد، ومن هنا قررت شجرة الدرّ مع المماليك أن تتنازل عن الحكم لرجل! تتزوجه ثم تتنازل له عن الحكم ليكون هو في الصورة ، وتحكم هي البلاد من خلاله أو من «خلف الستار» ، وكان هذا الرجل هو عز الدين أيبك أتابك

---

[٤٠] قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ص٢٣.

[٤١] قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ص٢٣.

[٤٢] المقريزى : السلوك ،٣٦٦/١.

[٤٣] العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ٣١/١ ؛ وانظر : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص١٨٥،١٨٦.

[٤٤] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك،٣٦٨/١ ؛ وانظر : ستانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى، ص٤٨٣ ؛ وليم موير ك تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص٤٣ ؛ قاسم عبده قاسم : فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، ص١٥١.

العسكر([٤٥]) الذى اشتهر بين المماليك بالعزوف عن الصراع، والبعد عن الخلافات، والهدوء النسبي، وكلها صفات حميدة في نظر شجرة الدر، فوجدت في هذا الرجل ضالتها، وهو من المماليك الصالحية البحرية أي من مماليك زوجها الراحل الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولم تختر شجرة الدرّ رجلًا من المماليك الأقوياء أمثال فارس الدين أقطاي أو ركن الدين بيبرس؛ وذلك لتتمكن من الحكم بلا منازع.

وبالفعل تزوجت شجرة الدرّ من عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم كما رسمت هى والمماليك ، وذلك بعد أن حكمت البلاد ثمانين يومًا فقط، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الآخرة من السنة نفسها سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥٠م([٤٦]).

وهكذا في غضون سنة واحدة فقط جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك.. وهم الملك الصالح أيوب ثم مات، فتولى توران شاه ابنه ثم قتل، فتولت شجرة الدرّ ثم تنازلت عن الحكم لزوجها عزّ الدين أيبك التركماني الصالحي! بعد أن حكمت ثمانين يوماً أثبتت فيها حسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها على حد قول ابن أيبك الداويدار([٤٧]).

تلقب عزّ الدين أيبك «بالملك المعز»، وأُخذت له البيعة في مصر([٤٨]) ، وقبل الشعب في مصر بالوضع الجديد فهو وإن لم يكن مثاليًا في رأيهم فإنه أفضل حالًا من تولي امرأة.

[٤٥] سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص١٨٦.

[٤٦] ابن كثير: البداية والنهاية ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ٢١٢/١٣.

[٤٧] ابن ايبك : كنز الدرر ، ١٣/٨.

[٤٨] السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٢٨.

المبحث الرابع : الدور السياسى لشجرة الدر فى عصر عز الدين أيبك :

استقر الوضع نسبيًا في مصر بزعامة عزّ الدين أيبك، وبدأت شجرة الدرّ تحكم من وراء الستار -كما أرادت-، وهي مؤيدة بالمماليك ، وخاصة فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس. لكن يبدو أن ذكاء شجرة الدرّ قد خانها عند اختيار ذلك الرجل؛ فالملك المعز عزّ الدين أيبك لم يكن بالضعف الذي تخيلته شجرة الدرّ ولا المماليك البحرية، فقد أدرك الملك الجديد من أول لحظة مرامي المرأة المتنازلة عن العرش([٤٩])، وعرف خطورة زملائه من المماليك البحرية في مصر وقوتهم، فبدأ يرتب أوراقه من جديد، ولكن في حذر شديد.

كان الملك المعز عزّ الدين أيبك من الذكاء بحيث إنه لم يصطدم بشجرة الدرّ ولا بزعماء المماليك البحرية في أول أمره. بل بدأ يقوي من شأنه، ويعد عدته تدريجيًا، فبدأ يشتري المماليك الخاصة به، ويعد قوَّة مملوكية عسكرية تدين له هو شخصيًا بالولاء، وانتقى من مماليك مصر من يصلح لهذه المهمة، وكوّن ما يعرف في التاريخ «بالمماليك المعزية»([٥٠]) نسبة إليه (المعز عز الدين أيبك)، ووضع على رأس هذه المجموعة أبرز رجاله، وأقوى فرسانه، وأعظم أمرائه مطلقًا وهو «سيف الدين قطز»([٥١]).

ومع أن الملك المعز عزّ الدين أيبك نفسه من المماليك البحرية فإنه بدأ يحدث بينه وبينهم نفور شديد.. أما هو فيعلم مدى قوتهم وارتباطهم بكلمة زوجته شجرة الدرّ التي لا تريد أن تعامله كملك بل «كصورة ملك».. وأما هم فلا شك أن عوامل شتى من الغيرة

---

[٤٩] أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، ص١٢٤.

[٥٠] محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام ، دار النفائس ، ١٤١٨هـ، ص٤٨.

[٥١] سيف الدين قطز (ت٦٥٨ هـ): هو سيف الدين قطز بن عبد الله التركي، أخص مماليك الملك المعزّ أيبك التركماني، أحد مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، بيع مملوكًا في سوق الرقيق، ثم انتقل إلى الشام ومنها إلى مصر، واسمه الحقيقى محمود بن مودود ابن أخت جلال الدين خوارزم شاه السلجوقي، بطل معركة عين جالوت ٦٥٨ هـ وكاسر التتار، قال الملك المؤيَّد صاحب المختصر: وكان مدة سلطنته أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما. أنظر : أبو الفدا : المختصر ، ٢٤٧/٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ٢١٢/١٤-٢١٤.

والحسد كانت تغلي في قلوبهم على هذا المملوك صاحب الكفاءات المحدودة في نظرهم الذي يجلس الآن على عرش مصر، ويُلقب بالملك.. أما هم فيلقبون بالمماليك.. وشتان!

لكن الملك الذكي عزّ الدين أيبك لم يُستفز مبكرًا. بل ظل هادئًا يعد عدته في رزانة، ويكثر من مماليكه في صمت.

ومرت الأيام، وحدث أن تجمعت قوى الأمراء الأيوبيين الشاميين لغزو مصر، وذلك لاسترداد حكم الأيوبيين بها.. وكانت الشام قد خرجت من حكم ملك مصر بعد وفاة توران شاه مباشرة.. والتقى معهم الملك المعز عزّ الدين أيبك بنفسه في موقعة فاصلة عند منطقة تسمى «العباسة» ، وذلك في العاشر من ذي القعدة سنة ٦٤٨ ه، أي بعد أربعة أشهر فقط من حكمه، وانتصر الملك المعز عزّ الدين أيبك على خصومه انتصارًا كبيرًا، ولا شك أن هذا الانتصار رفع أسهمه عند الشعب المصري، وثبت من أقدامه على العرش([٥٢]).

وفي سنة ٦٥١ ه (بعد ٣ سنوات من حكم أيبك) حدث خلاف جديد بين أمراء الشام والملك المعز عز الدين أيبك، ولكن قبل أن تحدث الحرب تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله للإصلاح بين الطرفين، وكان من جراء هذا الصلح أن دخلت فلسطين بكاملها حتى الجليل شمالًا تحت حكم مصر، فكانت هذه إضافة لقوة الملك المعز عز الدين أيبك، ثم حدث تطور خَطِر لصالحه وهو اعتراف الخليفة العباسي بزعامة الملك المعز عزّ الدين أيبك على مصر([٥٣])، والخليفة العباسي وإن كان ضعيفًا، وليست له سلطة فعلية فإن اعترافه يعطي للملك المعز صبغة شرعية مهمَّة.

[٥٢] العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ٤٠/١، ٤١ ؛ وانظر : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص١٨٩.

[٥٣] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢/٧ ؛ وانظر : عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك ، ص٧٧.

كل هذه الأحداث مكنت الملك المعز عزّ الدين أيبك من التحكم في مقاليد الأمور في مصر؛ ومن ثَمَّ زاد نفور زعماء المماليك البحرية منه، وبخاصةٍ فارس الدين أقطاي الذي كان يبادله كراهية معلنة، لا يخفيها بل يتعمد إبرازها.. فقد «بالغ فارس الدين أقطاي في احتقار أيبك والاستهانة به، بحيث كان يناديه باسمه مجردًا من أي ألقاب»، وهذا يعكس اعتقاد فارس الدين أقطاي أن هذا الملك صورة لا قيمة لها، وتخيل قائد الجيش ينادي الملك هكذا: يا أيبك.. ولا يناديه هكذا صداقة بل احتقارًا([٥٤]).

هذه المعاملة من أقطاي، وإحساس أيبك من داخله أن المماليك البحرية -وقد يكون الشعب- ينظرون إليه على أنه مجرد «زوج» للمرأة المتحكمة في الدولة هذا جعله يفكر جديًا في التخلص من أقطاي ليضمن الأمان لنفسه، وليثبت قوته للجميع.

انتظر أيبك الفرصة المناسبة، إلى أن علم أن أقطاي يتجهز للزواج من إحدى الأميرات الأيوبيات، فأدرك أن أقطاي يحاول أن يضفي على نفسه صورة جميلة أمام الشعب، وأن يجعل له انتماءً واضحًا للأسرة الأيوبية التي حكمت مصر قرابة ثمانين سنة، وإذا كانت شجرة الدرّ حكمت مصر لكونها زوجة الصالح أيوب، فلماذا لا يحكم أقطاي مصر لكونه زوجًا لأميرة أيوبية، فضلًا عن قوته وبأسه وتاريخه وقيادته للجيش في موقعة المنصورة الفاصلة؟!

شعر الملك المعز عزّ الدين أيبك بالخطر الشديد، وأن هذه بوادر انقلاب عليه ، فاعتبر أن ما فعله أقطاي سابقًا من إهانة واحتقار، وما يفعله الآن من زواج بالأميرة الأيوبية ما هو إلا مؤامرة لتنحية أيبك عن الحكم؛ ومن ثَمَّ أصدر أيبك أوامره «بقتل» زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي لا سيما بعد تجبر المماليك البحرية وزعيمهم اقطاى ومحاولتهم قتل أيبك([٥٥])، وبالفعل تم قتل فارس الدين أقطاي في ٣ من شعبان

[٥٤] قاسم عبده قاسم: السلطان المظفر قطز ، دار عين ، القاهرة، ص٧٤.

[٥٥] المقريزى : السلوك ، ٣٨٤/١.

سنة ٦٥٢ ه ، والقى أيبك برأس أقطاى إلى المماليك البحرية تحت أسوار القلعة فخافوا وفروا إلى الشام([٥٦]).

خلت الساحة لعز الدين أيبك، وبدأ يظهر قوته، ويبرز كلمته، وبدأ دور شجرة الدرّ يقل ويضمحل؛ فقد اكتسب الملك المعز الخبرة اللازمة، وزادت قوَّة مماليكه المعزية، واستقرت الأوضاع في بلده، فرضي عنه شعبه، واعترف له الخليفة العباسي بالسيادة، ورضي منه أمراء الشام الأيوبيون بالصلح.

كانت شجرة الدر من أكبر المشاكل الكبرى الداخلية التى واجهت عز الدين أيبك فهذه المرأة من صنف النساء الذى يهوى الحكم ويعشق السلطان ، وقد سبق وأن ذاقت طعم الحكم منفردة ، ولعل مخاطر شجرة الدر بالنسبة لعز الدين ايبك تتضح لنا من خلال مقولة لابن تغرى بردى عبر فيها عن سيطرة شجرة الدر على أيبك بقوله : " ليس له معها كلام" ([٥٧]) ، بل الأغرب من ذلك أنها منعته من الاجتماع بزوجته أم على وألزمته بطلاقها([٥٨]).

مرت السنوات، والملك المعز عزّ الدين أيبك مستقر في عرشه، وقد أصبح قائده سيف الدين قطز قائدًا بارزًا معروفًا عند الخاصة والعامة، واختفي تقريبًا دور شجرة الدر، وهذا كله ولاشك جعل الحقد يغلي في قلب شجرة الدر، ولا شك أن عزّ الدين أيبك كان يبادلها الشعور بالكراهية، فهو يعلم أنها ما تزوجته إلا لتحكم مصر من خلاله، ولكن أحيانًا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!

[٥٦] ابن دقماق صارم الدين: نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، تحقيق سمير طبارة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٤١٢ ؛ وانظر : أبو الفدا : المختصر ، ١٩٠/٣.

[٥٧] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٣٧٤/٦.

[٥٨] ابن أيبك : كنز الدرر ، ٢٥/٨ ؛ وانظر : ستانلى لين بول : سيرة القاهرة ، ص١٧٥.

الجدير بالذكر أنه عندما استبد الضيق بأيبك أخذ يفكر فى التخلص من شجرة الدر بقتلها ([٥٩])، فى الوقت الذى اتصلت شجرة الدر بالناصر يوسف الأيوبى بالشام مرسلة إليه بهدية ، ومعلمة إياه أنها عزمت على قتل أيبك والتزوج بالناصر ، وتمليكه مصر إلا أن الناصر لم يجبها بشىء مخافة أن يكون الأمر خدعة([٦٠]).

جاءت سنة ٦٥٥ ه وقد مرت ٧ سنوات كاملة على حكم الملك المعز عز الدين أيبك، وأراد الملك المعز أن يثبت أقدامه على العرش بصورة أكبر، بل وتزايدت أطماعه جدًّا في المناطق المجاورة له في فلسطين والشام، ولم تكن له طاقة على تنفيذ أحلامه بمفرده، فأراد أن يقيم حلفًا مع أحد الأمراء الكبار في المنطقة ليساعده على ذلك، ولما كانت خيانة العهود أمرًا طبعيًا في تلك الآونة، فإنه أراد أن يوثق الحلف برباط غليظ وهو الزواج! فاختار المعز عزّ الدين أيبك بنت حاكم الموصل الأمير «بدر الدين لؤلؤ» الذي كان له تعاونًا مقززًا مع التتار وكان سببًا في سقوط بغداد([٦١]).

علمت شجرة الدرّ بهذا الأمر فاشتعلت الغيرة في قلبها ، وركبها الهم والغم، وعلمت أنه لو تم هذا الزواج الجديد فستطوى صفحتها تمامًا من التاريخ ([٦٢])، وأعْمَتها الكراهية عن حسن تقدير الأمور، وهي التي اشتهرت بالحكمة، فلم تقدّر أن زعماء المماليك البحرية قد اختفوا، وأن القوَّة الحقيقية الآن في أيدي المماليك المعزّية الذين يدينون بالولاء والطاعة للملك المعز عز الدين أيبك.. لم تقدّر كل ذلك، وقررت بعاطفة المرأة أن تقدم على خطوة غير مدروسة، ولكنها مألوفة لديها، وهذه الخطوة هي: قتل المعز: عزّ الدين أيبك ، وإقامة غيره فى الملك([٦٣]).

---

[٥٩] ابن أيبك : كنز الدرر ، ٢٥/٨.

[٦٠] المقريزى : السلوك ، ٤٠٢/١ ؛ وانظر : ستانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، ٤٨٩.

[٦١] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٣٧٥/٦؛ وانظر : محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ، المكتب الإسلامى ، دمشق ، ط١، ٢٧/٧.

[٦٢] ستانلى لين بول : سيرة القاهرة ، ص١٧٥.

[٦٣] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٣٧٥/٦ ؛ وانظر : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص١٩٠.

وبالفعل دبرت مؤامرة لقتل زوجها، وتم تنفيذها في قصرها في شهر ربيع الأول سنة٦٥٥ ه، لينتهي بذلك حكم المعز عزّ الدين أيبك بعد سبع سنوات من الجلوس على عرش مصر، حيث حرضت جماعة من الخدم على قتله بالحمام ، وأسهمت بنفسها فى تنفيذ الجريمة عندما أقدمت على ضربه معهم بالقبقاب ، وهو يصرخ ويستغيث ويتضرع إليها إلى أن مات(٦٤).

وكانت شجرة الدر قد طلبت صفى الدين بن مرزوق واستشارته فى قتل أيبك ، ووعدته بالوزارة فأنكر عليها ذلك ونهاها ن فلم تصغ إليه ، وطلبت مملوكاً للطواشى محسن الجوهرى الصالحى وعرضت عليه أمرها ووعدته ومنته إن قتل المعز، ثم استدعت جماعة من الخدم واتفقت معهم على قتل أيبك فوقب عليه سنجر الجوهرى والخدم فرموه وخنقوه ، وضربته شجرة الدر بالقبقاب (٦٥).

حاولت شجرة الدر أن تخفى جريمتها وطلبت بعض أمراء المماليك ، وعرضت عليهم السلطنة فرفضوا ، وما أن صبح الصباح حتى انتشر خبر مقتل أيبك (٦٦).

علم الجميع بجريمة القتل، وأسرع سيف الدين قطز قائد الجيش والذراع اليمنى للمعز عز الدين أيبك، ومعه ابن عزّ الدين أيبك من زوجته الأولى وكان اسمه نور الدين علي.. أسرعا ومعهما فرقة من المماليك المعزية، وألقيا القبض على شجرة الدرّ(٦٧) .

طلبت أمّ نور الدين علي (زوجة المعز عزّ الدين أيبك الأولى) أن يترك لها الأمر في التصرف مع ضرتها شجرة الدرّ، وكانت النهاية المأساوية المشهورة، أن

---

٦٤ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٤٠٣/١ ؛ وانظر : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص١٩١.

٦٥ ابن تغرى بردى : النجوم ، ٣٧٥/٦.

٦٦ نفس المصدر والمكان والصفحة .

٦٧ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى ، ص١٤٠.

أمرت أمّ نور الدين جواريها أن تُقتل شجرة الدر «ضربًا بالقباقيب»![٦٨] ، وقيل قتلت خنقاً وألقيت جثتها على باب القلعة من ناحية القرافة [٦٩].

وبعد مقتل الملك المعز عزّ الدين أيبك ثم مقتل شجرة الدرّ بويع لابن عزّ الدين أيبك وهو نور الدين علي، والذي لم يكن قد بلغ بعد الخامسة عشر من عمره، وتلقب بلقب «المنصور»، وتولى الوصاية الكاملة عليه أقوى الرجال في مصر في ذلك الوقت وهو سيف الدين قطز قائد الجيش، وزعيم المماليك المعزّية، وأكثر الناس ولاءً للملك السابق المعزّ عزّ الدين أيبك.. وكانت هذه البيعة لهذا السلطان الطفل في ربيع الأول من سنة ٦٥٥ ه[٧٠].

وأصبح الحاكم الفعلي لمصر هو سيف الدين قطز ، واسمه الأصلي «محمود بن ممدو ابن أخت جلال الدين الخُوارزمي[٧١]!

وكما أحدث صعود شجرة الدرّ إلى كرسي الحكم قبل ذلك اضطرابات كثيرة في مصر والعالم الإسلامي، فكذلك أحدث صعود الطفل نور الدين إلى كرسي الحكم الاضطرابات نفسها، وكانت أكثر الاضطرابات تأتي من قبل بعض المماليك البحرية الذين مكثوا في مصر، ولم يهربوا إلى الشام مع من هرب منها أيام الملك المعز عز الدين أيبك، وتزعم أحد هؤلاء المماليك البحرية -واسمه «سنجر الحلبي»- الثورة، وكان يرغب في الحكم لنفسه بعد مقتل عز الدين أيبك، فاضطر قطز إلى القبض عليه وحبسه.. كذلك قبض قطز على بعض رءوس الثورات المختلفة، فأسرع بقية المماليك البحرية إلى الهرب إلى الشام، وذلك ليلحقوا بزعمائهم الذين فروا قبل ذلك إلى هناك أيام الملك المعزّ، ولما وصل المماليك البحرية إلى الشام شجعوا الأمراء الأيوبيين على غزو

---

[٦٨] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٤٩٤/١.

[٦٩] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٣٧٦/٦،٣٧٧.

[٧٠] ابن كثير: البداية والنهاية ، ٢٤٩/١٣.

[٧١] الذهبي: العبر في خبر من غبر ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول أبو هاجر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ٢٩١/٣ ؛ وانظر : وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ٨٥/٧.

مصر، واستجاب لهم بالفعل بعض هؤلاء الأمراء، ومنهم «مغيث الدين عمر» أمير الكرك (بالأردن حاليًّا) الذي تقدم بجيشه لغزو مصر([٧٢])! وكان أميرًا ضعيفًا جدًّا، ومع ذلك كان صاحب أطماع أكبر كثيرًا من حجمه!

وصل مغيث الدين بالفعل بجيشه إلى مصر، وخرج له قطز فصدّه عن دخول مصر، وذلك في ذي القعدة من سنة ٦٥٥ هجرية، ثم عاد مغيث الدين تراوده الأحلام لغزو مصر من جديد، ولكن صدّه قطز مرة أخرى في ربيع الآخر سنة ٦٥٦ هجرية.

وفي ضوء الخطر التتري الرهيب، والمشاكل الداخلية الطاحنة، واضطرابات وثورات المماليك البحرية، وأطماع الأمراء الأيوبيين الشاميين.. في ضوء كل ذلك لم يجد قطز أي معنى لأن يبقى السلطان الطفل «نور الدين علي» على كرسي أهم دولة في المنطقة، وهي مصر، والتي لم يعد هناك أمل في صد التتار إلا فيها.

اتخذ قطز القرار الجريء، وهو عزل السلطان الطفل نور الدين علي، واعتلاء عرش مصر في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٥٧ ه([٧٣]).

[٧٢] محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ، ٢٧/٧.

[٧٣] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٥٠٨/١.

الخاتمة

وعقب الانتهاء من هذه الدراسة فقد وصلنا إلى عدة نتائج واستخلاصات منها :

أن شجرة الدر كانت امرأة طموحة وذكية ، وكانت تسعى بكل إمكانياتها للوصول إلى كرسى السلطنة .

أن اتفاق المماليك على تولية شجرة الدر عقب مقتل تورانشاة يرجع إلى كفاءتها ، فضلاً عن تغلبها على العديد من الصعاب فى حياة زوجها الملك الصالح وبعد وفاته .

أظهرت الدراسة حالة الاعتراض على تولى شجرة الدر الحكم من الشعب والعلماء بل ومن الخليفة العباسى نفسه ن وهو الأمر الذى اضطر المماليك وشجرة الدر إلى التفكير فى حل ، وتم التوصل إلى زواج شجرة الدر من أيبك لتحكم من وراء ستار.

أوضحت الدراسة أن أيبك لم يكن بالرجل الساذج الذى سيرضخ للمماليك وشجرة الدر ، بل أظهر للجميع أنه صاحب مقدرة فذة للتغلب على الصعاب والمشاكل.

بينت الدراسة أن طموح شجرة الدر لم يكن له حدود ، وهو الذى دفعها لقتل كل من تورانشاه وعز الدين أيبك كى تحافظ على سلطتها ودورها السياسى .

وأخيراً أوضحت الدراسة أن من قتل يقتل ولو بعد حين ، وهى السنة الكونية التى أنهت حياة شجرة الدر بعد أن قتلت زوجها قتلت على يد مماليكه وزوجته الأولى.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر :

١- ابن أيبك : كنز الدرر ، تحقيق هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١م.
٢- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة.
٣- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٨م.
٤- العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ، ١٤٠٧ه/١٩٨٧م.
٥- أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق محمد زينهم ، دار المعارف ، القاهرة.
٦- القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، تحقيق فهمي سعد ، أحمد حطيط ، عالم الكتب ، ط١ ، ١٤١٢ه/١٩٩٢م.
٧- سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٩٥١م ، قسم ٢ ج٢.
٨- السيوطي: تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، القاهرة.
٩- أبو شامة : الذيل على الروضتين ، نشر محمد عزت العطار ، ط٢ ، ١٩٧٤م.
١٠-الصفدى : الوافى بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ،٢٠١٠م.
١١-ابن كثير: البداية والنهاية ، دار الغد العربى ، القاهرة.
١٢-ابن دقماق صارم الدين: نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، تحقيق سمير طبارة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠ه/١٩٩٩م.
١٣-الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق بشار عواد دار الغرب الإسلامى ، ، ط١ ، ٢٠٠٣م.
١٤-الذهبي: العبر في خبر من غبر ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول أبو هاجر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م.
١٥-المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة.
١٦-النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد ضياء الدين الريس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٢م.

ثانياً : المراجع

١- أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية.

٢- عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨م.

٣- سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٩٣م.

٤- ستانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد سالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٥م.

٥- ستانلى لين بول : سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧م.

٦- قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، دار عين ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٨م.

٧- قاسم عبده قاسم : فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٣م.

٨- قاسم عبده قاسم: السلطان المظفر قطز ، دار عين ، القاهرة.

٩- محمد سهيل طقوش: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ، دار النفائس ، ١٤٢٩ه.

١٠-محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام ، دار النفائس ، ١٤١٨ه.

١١-محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية.

١٢-محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ، المكتب الإسلامى ، دمشق ، ط١.

١٣-وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ،ط١ ، ١٤١٥ه/١٩٩٥م.